عنوانه الحالي : لان « التقليد » (المحاكاة) قد يكون نفسه عاملا من عوامل التغيرات الاجتماعية كما هو الحال في السودان وفي مختلف البلاد النامية التي تحاول تقليد الدول الصناعية في تقدمها العلمي والتكنولوجي ، اما « التقليد » فهو الذي يأتي من مقابلة التغيرات الاجتماعية .

كلمة اخيرة عن مؤتمر الخرطوم الذي القيت فيه بحوث هذه الكتب : كان لاشتراك المثقفين من ابناء السودان بالبحوث والمناقشة والاستماع اثر كبير في نجاح المؤتمر . وقد اشتركت المرأة السودانية بنصيب كبير في البحوث والمناقشة ، وهذا في ذاته دليل على حركة التغير الاجتماعية البناءة التي تساهم فيها المرأة السودانية بقسط وافر . وقد جمع المؤتمر بين كثير من العلماء الذين ينتمون الى جنسيات مختلفة ومذاهب سياسية عديدة ، كان رائدهم جميعاً الاستفادة الى اقصى مدى من البحوث التي القيت في جو ساده التعاون التام والمناقشات العميقة والنقد المتزن الهادىء .

عبده الخولي

الرسم عند العرب

Arab Painting,
by Richard Ettinghausen. Skira, Geneva, 1962.

هذا الكتاب حدث اكبر مما يوحي به حتى مظهره الممتاز وسعره المرتفع (٢٢،٥ دولارا) . ذلك لان معظم الناس يجهلون الرسم العربي جهلا غريبا : فالمثقف الغربي مطلع اطلاعا وافيا على الفنون اليابانية والفارسية والهندية لكنه يجد صعوبة كبيرة في ذكر اثر فني عربي واحد . وفي المتاحف الاوربية والامريكية تصنف الفنون العربية مع الفنون التركية والفارسية والقبطية والاسبانية العربية تحت التسمية العامة « الفنون الاسلامية » . ويكاد يكون الكتاب الانكليزي الوحيد الذي يبحث في هذا الفن هو كتاب طوماس آرنولد « الرسم في الاسلام » الذي نشر في ١٩٢٨ . وهكذا فان اتنغهوزن ، باستعماله لفظة الرسم « العربي » ، يكون قد ضرب بجرأة على وتر جديد واثار نقطة سينتج عنها لغط كبير في اوساط مؤرخي الفنون التقليديين .

وليس من الانصاف لوم المثقف في الغرب على جهله بشؤون الرسم عند العرب ، او اخذ جهله هذا على انه نتيجة عداء ثقافي : فاني اشك فيما اذا كان اطلاع المثقف العربي العادي على تراثه الفني وعلى المرئيات اوسع من اطلاع قرينه الغربي . فعلى الرغم من النهضة الفنية في بعض العواصم العربية ليس هنالك في الحياة العربية ما يوحي بان ما يراه الانسان يشكل اية اهمية له . واعتقد ان معظم القراء العرب الذين ينظرون الى الرسوم في هذا الكتاب ينظرون اليها لاول مرة .

ولا نستطيع ان نلومهم هم ايضاً ، لان الظروف المتناقضة التي واجهت الحضارة العربية والتي لم تواجه اية حضارة اخرى جعلت الاطلاع على الرسم العربي قبل صدور الكتاب الذي نحن

بصدده امرا يكاد يكون مستحيلا الا للباحث الصابر المصمم على البحث والاستقصاء . واول صعوبة واعظمها هي بكل بساطة ضآلة المواد وقلة الانتاج نسبيا ، فقد ضاع واتلف الكثير مما انتج ، والقليل الباقي غير مبوب ولا مؤرخ ، وهو فوق ذلك مبعثر في جميع انحاء المعمورة وخصوصا في المتاحف الاوربية والامريكية . والبلاد العربية نفسها لا تملك الا جزءا يسيرا من تراثها الفني ، ويندر ان توجد في البيوت العربية نسخ عن هذه الرسوم : وبينما نجد نسخا عن الآثار الغربية في متناول اليد في الاسواق العربية ، يكاد يكون متحف فكتوريا والبرت في لندن احد الامكنة القليلة حيث بامكان المرء ان يجد نسخا عن الرسوم العربية . ومن المفارقات ان معظم الآثار الفنية التي نجدهـــا في العالم العربي اليوم لا تنتمي الى الحضارة العربية بل الى ما سبقها من حضارات ، كالاغريقية والرومانية والفرعونية والاشوريـــة والبابلية والفينيقية وغيرها .

فـالواضح منذ البدايـة اذاً ان تلك التسمية « الرسم عند العرب » هي في الواقع وصف لفن لم يزدهر اكثر من قرن او اثنين ولم يتعد في الواقع مرحلة التصوير . وانواع الرسوم التي على المرء ان يعتمدها لدراسة فن الرسم عند العرب وتقييمه قليلة ، قلة العينات الموجودة منها : مقدار صغير من الفسيفساء وصور الحيطان (وجد معظمها في قصور الصحراء ودارات الصيد في العهد الاموي) ، وطائفة من المخطوطات المزينة بالرسوم ، وبعض النسخ المصورة من القرآن ، بالاضافة الى الفسيفساء في الجامع الكبير في دمشق وفي باليرمو . وتكاد تكون هـــذه هي العينات الرئيسية للفن العربي ، اذا استثنينا النسيج والسيراميك ، وهما لا يقعان ضمن اختصاص مؤلف هذا الكتاب . لكن رسوم هذا المجلد التي تفيض بالحيوية والالوان تبرر تبريراً كاملا ادعاء المؤلف بان الرسم العربي لا يقل روعة عنه عند اية امة اخرى في القرون الوسطى .

واذا تذكرنا ان الفنان العربي كان يعمل وهو مكبل بقيود الدين ، وان الوان الفن ، بل وانواع المواضيع التي يصورها ، كانت محدودة جداً ، لم يسعنا الا الاعجاب بقوة الدافع الخلاق عنده .

لقد وضعت ابحاث عديدة عن موقف الاسلام التقليدي من الرسم والنحت دون ان تفسر اسبابه بوضوح . وقد الح الاستاذ صلاح ستيتيه في مقال نشره اخيرا لحقيقة كان قد اكدها من قبل ماسينيون وغيره من اصحاب الاختصاص ، بانه ليس هنالك في القرآن اي منع للفنون المرئية : لكن بالرغم من هذا تبقى الحضارة العربية اقل الحضارات انتاجا لتلك الفنون . ففي اوربا اخذت الكنيسة الكاثوليكية المثالين والرسامين والموسيقيين والمعماريين تحت رعايتها ، ولولا هذا لما ازدهر الفن الاوربي ربما هذا الازدهار . وقد اصاب اتنهوزن عندما لفت نظرنا الى ان اهم ما في الرسوم العربية ليس قلتها بقدر ما هو وجودها اطلاقا .

فوجود رسوم عربية بالرغم من كل الظروف التي ذكرتها تشهد على مدى تصميم العرب على انتاج الفنون وتذوقها . وقد يكون ان الفن العربي ذهب ضحية تلك العوامل المتضاربة التي تؤلف شخصية العربي : تمسكه العميق بالدين وتمسكه بالتجارة ؛ ولكن من المعقول جدا ان التعليل الصحيح لافول الفن العربي هو الغزو المغولي وما نتج عنه من تفكك وانحلال في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتدهور في النظام السياسي . فالمجتمع الغني والواثق من نفسه يجد طرقا عديدة للتفلت من القيود المفروضة عليه : فقد استطاعت بغداد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، كما يخبرنا المؤلف ، ان تتملص من هذه القيود بفضل قوة البلاط ونفوذ طبقة التجار ، واستطاع الفنان في تلك الفترة فيها ان يعمل في حرية نسبية وهو في مأمن من عدوان المتطرفين ، كما كان امراء

سورية من قبل قد زينوا قصورهم بمجموعة مذهلة من الفسيفساء وصور الحيطان . لكن مجيء المغول عام ١٢٥٨ حمل معه دمارا عظيما لم يكد ينجو منه شيء ، وكان من الجلي بان ذلك الفن الذي كان قائماً في بلاطات الامراء وقصور الاغنياء ، وبمعزل عن الشعب وثقافته الدينية ، لم يكن ليعيش طويلا بعد ان انهار اولياؤه .

يوضح اتننغهوزن منذ البداية انه يستعمل لفظة « عرب » بمعناها العام، فتشمل حضارة الامبراطورية التي ظهرت في القرون الوسطى والتي اخذت جذورها من الديانة الاسلامية والتي كانت تجمع شملها لحد بعيد اللغة العربية ، التي كانت لغتها الدينية ولغة الطبقة الحاكمة ولغة ادبها وعلومها وشعرها . وهو يعني بها على وجه التحديد العراق والشام ومصر بالدرجة الاولى ومن ثم البقعة التي تمتد بين اسبانيا ومراكش غرباً والهضاب الايرانية في الشرق .

لكن صعوبة تقرير ما الذي تعنيه لفظة « الرسوم العربية » تتعدى الجغرافيا ، وذلك لانفتاح اهل تلك المنطقة الشاسعة ، ما قبل الفتح وما بعده ، على الحضارات الاخرى وخاصة الحضارة الهلينية والساسانية ؛ كما انه من الواجب علينا ان نذكر ان معظم الفنانين في اول عهد العرب بالفن كانوا من الاعاجم . وبوسع المرء ان يرى نتيجة هذا التفاعل والاختلاط الثقافي في متحفنا في بيروت، حيث يجد عدداً من التوابيت الرخامية ، صنعها اغريقيون في صيداء في القرن العاشر ، حسب الطريقة المصرية ، وأعطى الفنانون فيها للرجال الفينيقيين الذين صوروهم ملامح اغريقية .

وتشير الاثار الفنية التي انتجتها المدرسة العباسية في أوجها ، بما في هذه الاثار من جهد وثقة بالذات ، الى ان الفنان العربي كان ليستطيع ان يصبح سيد فنه ويستفيد من المؤثرات المتضاربة التي تعرض لها لو أتيح له زمان وطمأنينة كافيان لذلك . وكان لا بد والحالة تلك من ظهور مدارس اقليمية الى حيز الوجود ، جديرة بأن تتحدى مدارس عصر النهضة في اوربا . لكن الوضع السياسي المتقلب باستمرار ، واضطرار الفنان الى الهجرة من عاصمة الى عاصمة على الدوام ، جعلا التطور المستمر يكاد يكون مستحيلا . وعلى الرغم من ان الفاطميين في مصر كانوا بمعزل عن الخطر المغولي فانهم لم يتمكنوا من انتاج فن يجاري الفن العباسي . وقد لا يكون من قبيل الصدف ان العراق ، وهو البلد العربي الذي انتج اهم اللوحات واطرفها في الاونة الاخيرة، كان هو الذي اقترب ايام العباسيين اكثر مما اقترب اي بلد آخر لان يكوّن مدرسة تصهر التجارب والتأثيرات الخارجية في اسلوب نستطيع بثقة ان ندعوه عربيا ، اسلوب مستقل فذ وذي خصائص واضحة تتميز بالمحلية والاصالة .

والعقبة الاخيرة التي تقض مضجع مؤرخ الفنون الذي يأمل في دراسة تطور الاسلوب العربي هي ان الاعمال الفنية ينقصها في معظمها التأريخ الصحيح والتيقن من هوية صاحبها ومكانه . كما ان العادة التي جرى عليها القدماء في عدم تأريخ المخطوطات او في التغيير في تاريخ ما بغية اضفاء مسحة القدم عليها ، مما يزيد الامر تعقيداً ويلقي المؤرخ في دوامة من الشك . لكن بالرغم من هذا فالخصائص العامة ظاهرة بوضوح ، وهي لا التفاصيل ما يهم القارىء غير المتخصص .

ونظراً لما في موضوع الكتاب من صعوبات لا يسعنا الا نقدر للمؤلف افلاحه في الابتعاد عن الجفاف والحذلقة . فهو يناقش الاسلوب العربي بالتفصيل (معالجة المدى والفراغ، وثنيات الاثواب، والجسم البشري ، وملامح الوجوه والايدي) دون ان يتيه في التفاصيل العقيمة التي تجعل كثيراً من الدراسات عن الفن صعبة ومزعجة للقارىء العادي . كما ان له من الاطلاع العميق الواسع على التاريخ العربي والثقافة العربية ما يمكنه من درس الفن في اطاره الاجتماعي الصحيح . وان تذوقه

الاصيل للرسم العربي ، وايمانه بقيمته ، يبعثان في كتابه حرارة ودفئاً دون ان يفسدا الروح العلمية فيه ، مما يجعله محبباً للقراء مستساغا لديهم .

وفي الفصل الاخير من الكتاب ، ولعله امتع فصوله ، يلخص اتنغهوزن خصائص اسلوب الرسم العربي : فيصفه بأنه ذو حس بنائي قوي ، والوان جريئة ، وبأنه عديم الاهتمام بالجسم البشري ، ومعنيّ بالايدي والوجوه ، وبناحية الزخرف والتزويق ، ومتفوق في رسم اشكال الحيوانات . ثم يتطرق الى ذكر مواضيع الرسوم العربية ، ويركز على ثلاثة رئيسية منها وهي : فكرة الفخامة والسيطرة الكونية ، والاهتمام العلمي بطبيعة العالم المادي ، والعناية بالكلام كنشاط انساني – ويمثل عدد كبير جداً من الرسوم التي تبقت لنا هذا النشاط المفضل في مظاهره المختلفة ، كالتعليم والوعظ والنصح والالتماس بل (في حال ابي زيد) والمداهنة . ويذكرنا المؤلف في خاتمة مطافه بنقائص فن الرسم العربي ، التي يجب ان نأخذها بعين الاعتبار اذا اردنا ان نخرج بحكم متزن عليه ، وهي : عدم وجود اية وظيفة دينية له ، وانعدام الحس الفنائي ، وغياب صور الاشخاص ، وفقدان المواضيع التاريخية والملحمية ، وعدم الاهتمام بالجسم البشري . فهل نقول ، اذ نقرأ هذه القائمة من النقائص ، ان فن الرسم عند العرب من الفنون الثانوية الاهمية ؟ يقول اتنغهوزن ان على الرسوم ان تتكلم عن نفسها ، وانها توحي بأحاسيس مختلفة للمتفرجين المختلفين : اما انا فقد رأيت ان في افضلها اصالة وحيوية كانت تبشر بوعود هائلة ، وانها حتى بشكلها الحالي تجعل الرسوم الفارسية تبدو وقد بولغ كثيرا في قيمتها . ولا يسع المرء الا ان يتحسر على ما فقد ، وان يأمل ان يستوحي الفنانون العرب المعاصرون تلك الروح التي اذكت مواهب اسلافهم .

روزموري صايغ

المرأة العربية ومشكلتها الجنسية

Le drame sexuel de la femme dans l'Orient Arabe,
par Youssef el Masry . Robert Lattout, Paris, 1962

قبل سنين ظهر للاديبة والمفكرة الفرنسية سيمون ده بوفوار مؤلف ضخم حللت فيه ، بكثير من الوضوح وبقليل من روح الدعابة ، وضع المرأة عامة وفحصت فيه جميع وجهات النظر في كل مكان. اما كتاب الاستاذ يوسف المصري الذي نحن بصدده فليس اكثر من حاشية ذات لون محلي ، والعنوان الذي اختاره له اعتمد فيه ولا شك ان يغري القارىء على شراء الكتاب ؛ لكنه عنوان بعيد عن الدقة . فالكتاب في الواقع اثنان ، واحد يتحدث عن عادة تعاطي الحشيش في وادي النيل وما تؤول اليه من مساوىء ، ويعطي المؤلف تفسيرات لهذه العادة ؛ والثاني يصف باسهاب وضع المرأة من الناحية الاجتماعية والقانونية في العالم العربي ، او بالاحرى في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بالدرجة الاولى ومن ثم في الاردن وسوريا ولبنان .